مجلّة الذخيرة للبحوث و الدراسات الإسلامية المجلد الأول العدد التجريبي (2017 م)
مجلّة الذخيرة للبحوث و الدراسات الإسلامية
ردمد 0000-0000
http://eddakhira.univ-ghardaia.dz

مناهج المستشرقين
بين الشعارات العلمية والواقع

د . عبد القادر مرزوح
د . عبد القادر حباس
جامعة وهران 1 / جامعة غرداية
aek.habbes22@gmail.com

ملخص

إن مقياس الشعارات العلمية إنما هو مدى تحقيق النتائج العلمية الصحيحة المطابقة لمضمونها، وإن التظاهر بالموضوعية واحتقار الذاتية لا يغني من الحق شيئا إذا كان الواقع على العكس من ذلك، لذلك تناولت في هذا البحث: مناهج الاستشراق بين الشعارات العلمية والواقع، وطرحت الإشكالية الآتية: ما حقيقة مناهج المستشرقين بين الشعارات العلمية والواقع؟ وما هو منهج نقد وتقييم البحوث الاستشراقية؟ وعالجت فيه العناصر التالية:أولا. منهج وآداب النقد والتقييم. ثانيا: أساليب وخطوات المستشرقين في البحوث. ثالثا: أسلوب المستشرقين في عرض البحوث والدراسات. ويخلص البحث إلى أن الدراسات الاستشراقية مهما كانت موضوعية في مضمونها ومحتواها، إذا سلمت من التعصب والهوى، فإنها لا تخلو من هنات وأخطاء لغوية أو علمية أو تاريخية، ويترتب على هذا الوصول إلى نتائج علمية خاطئة، ومن هنا وجب علينا تناول هذه الدراسات بالبحث والتقصي للتنبيه إلى هذه الأخطاء الصادرة عن المستشرقين.

Abstract

The scale of the scientific slogans is the extent to which the correct scientific results are identical to their content.The demonstration of the objectivity and self-contempt does not diminish the truth if the reality is the opposite.Therefore, in this research, I dealt with orientalism between scientific slogans and reality.The truth of orientalist approaches between scientific slogans and reality?What is the approach of criticizing and evaluating Orientalist research? And dealt with the following elements: First: criticism, evaluation curriculum and literature.Second: Methods and steps of orientalists in research.Third: The Orientalists' method of presenting research and studies. The research concludes that orientalist studies, regardless of their objectivity and content, if they are accepted by fanaticism and this fanaticism, is not free of linguistic, scientific or historical errors .That is why we should mention the wrong scientific results, and show these errors issued by Orientalists.

مقدمة:

الحمد لله ولي كل توفيق وملهم كل خير والهادي إلى كل حق والمتكفل بنصرة دينه وحماية كتابه، القائل:﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾. [فصلت: 42]. والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، ثم أما بعد:

إن مقياس الشعارات العلمية إنما هو مدى تحقيق النتائج العلمية الصحيحة المطابقة لمضمونها، وإن التظاهر بالموضوعية واحتقار الذاتية لا يغني من الحق شيئا إذا كان الواقع على العكس من ذلك، ومن هنا فما حقيقة مناهج المستشرقين بين الشعارات العلمية والواقع؟ وما هو منهج نقد وتقييم البحوث الاستشراقية؟

تشمل الدراسات الإسلامية عند المستشرقين كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين؛ من القرآن وعلومه، والسنة النبوية وعلومها، والعقيدة، والفقه الإسلامي، واللغة العربية وعلومها، والتاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامية، وكل ذلك تحت شعارات علمية، وأساليب وخطوات معينة، ومناهج وضعية وعقلية ولغوية ونقدية مقصودة، أفرزت عن دعاوى تتعلق بكل ما هو من الثوابت والأصول والمنطلقات والتي تخالف مناهج فهم النص القرآني عند المسلمين في الموضوعات الإسلامية، والتي تقتضي تأصيلها ونقدها وفق المنهج العلمي الإسلامي قاصدين الحقيقة، بل والحقيقة الناصعة لا غير مهتدين بالمعايير والمقاييس الإنسانية من حيث الشكل، والعقلية والعلمية من حيث الخطوات والأساليب والأدلة.

أولا. منهج وآداب النقد والتقييم:

إن الباحث الذي يُسْلم نفسه وعقله لمبادئ العلم وقواعده وحقائقه لا شك أنه يصل إلى الحقيقة بقوانينها ونظرياتها ونتائجها، دون محاباة لجنس بشري معين، أو بيئة جغرافية محددة، أو أمة من الأمم دون غيرها، ومن هنا فإن منهج نقد وتقييم كتابات المستشرقين ستكون من هذا المنطلق، فمن أحسن من المستشرقين في بحوثه فإنما يحسن لنفسه وللعلم وللحقيقة، ومن أساء وأخطأ فهذا شأن البشر، ولكن لا يقبل العلم ولا

الخلق ولا الحق ولا الإنسانية التعمد في الخطأ، بل التعمد في الإساءة للآخر تحت أي غرض من الأغراض والأهداف والدوافع المشبوهة، فإن هو فعل ذلك فإن تاريخ العلم سيخرج بحوثه وكتاباته من مضمار العلم والعلماء، وسيضعها على رفوف النسيان والاندثار، وسيكشف صدقه من كذبه مهما طال الزمن، فالعلم يكتب الخلود للحقيقة بآثارها في عمر الإنسانية، لا في عمر الأشخاص.

بداية من المعلوم أن طبقة العلماء والباحثين الحقيقيين قديما وحديثا تمتاز "برحابة الصدر وسعة النظر، وسلامة القلب، والاعتراف بالفضل، والاستفادة من مجهود الأولين، بل والمعاصرين، بل من كان دونهم في السن والطبقة، وطول الممارسة لصناعة التأليف والبحث، وإن أكثر ما تتنافى هذه القسوة ونكران الجميل، وجحد الحق والفضل، تتنافى مع تعاليم القرآن وآداب الإسلام." [1]

ويقرر ذلك ابن تيمية بقوله "المناظرة والمحاجة لا تنفع إلا مع العدل والانصاف؛ وإلا فالظالم يجحد الحق الذي يعلمه، وهو المسفسط والمقرمط، أو يمتنع عن الاستماع والنظر في طريق العلم، وهو المعرض عن النظر والاستدلال، فكما أن الاحساس الظاهر لا يحصل للمعرض ولا يقوم للجاحد، فكذلك الشهود الباطن لا يحصل للمعرض عن النظر والبحث، بل طالب العلم يجتهد في طلبه من طرقه، ولهذا سمي مجتهدا." [2]

ومن هنا فإن الإسلام يحكم بين المنتسبين إليه وغيرهم بميزان الحق والعدل والقسط، لا في ميدان التخاصم فحسب، بل في ميدان العلم والحقيقة أيضا. وصدق الحق إذ يقول: ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾. [النمل:64].

---

1 – أبو الحسن الندوي: الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين –تقييم لكتابات المستشرقين واستعراض لبحوث المؤلفين المسلمين في الموضوعات الإسلامية–، ط:03، (1406هـ-1986م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص:12/11.

2– تقي الدين أحمد بن تيمية: مجموعة الفتاوى: اعتنى بها وخرّج أحاديثها: عامر الجزار، وأنور الباز، ط:03، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، (1426ه-2005م)، ج:04، ص:67.

ومن هنا فإن منهج تقييم كتابات الباحثين لا بد أن يقوم على ملاحظة نتائج بحوثهم، ذلك أن "قيمة نظرية من النظريات وأهمية حقيقة من الحقائق، إنما تقوم بصورة كلية على النتائج التي يمكن أن تستمد منها، والثمرات التي تحملها." [1]

وتأسيسا على هذه الآداب التي يمتاز بها أهل العلم والبحث المنصفين فإنه "وإذا كان لا بد من نقد وتقييم لعمل علمي، أو تحقيق لباحث والاختلاف فيه، أو نقضه وتزييفه، أو تبيين الخطأ فيه، فليكن في أسلوب علمي، ونقد نزيه، ونسبة عادلة معقولة." [2]

لا لشيء إلا لأن الدين يضبط علاقة المسلم بغيره بالجدال بالتي هي أحسن وسيلة، وأقوم منهج، وأنبل خلق، ولأن العلم باعتباره لسان الحق والحقيقة يقتضي ذلك ويوجبه.

ومن هنا فالخطوات المتبعة لتحقيق هذا الأسلوب العلمي في محاسبة كتابات المستشرقين ونقدها نقدا نزيها، والتي يجب أن يقوم بها الباحثون المسلمون؛ لإحباط المؤامرة على الإسلام والأمة الإسلامية، تتمثل فيما يلي: [3]

1.استعراض مؤلفات وأعمال المستشرقين العلمية: وقد سبق ذلك في المطلب الثاني من المبحث الرابع في الفصل الأول.

2.محاسبة كتابات المستشرقين في ضوء الحقيقة والواقع: ذلك أن إطلاق الأحكام دون دراسة عميقة لبحوث المستشرقين وكتاباتهم ونشاطهم المختلف يعد مخالفا للمنهج العلمي الذي تقرر في الفصل الثاني من هذا البحث.

3.كشف الغطاء عن تلبيسات المستشرقين وأخطائهم في فهم النصوص وبيان المعنى: وهذا يتطلب فعلا الإحاطة النسبية على الأقل في موضوع الدراسة، بمناهج

1- جورج سارتون: تاريخ العلم والإنسية الجديدة، ترجمة: اسماعيل مظهر، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، نيويورك، ودار النهضة العربية، القاهرة، (1961م)، ص:133.

2 - أبو الحسن الندوي: المصدر السابق، ص:12.

3 - ينظر: أبو الحسن علي الحسني الندوي: نفس المصدر السابق، ص:21/20.

المستشرقين المختلفة، وبطريقة وأسلوب الرد المبني على الأسس العلمية، والخطة الواضحة.

4.إظهار ضعف المصادر المعتمد عليها: فالقيمة العلمية للخبر المعتمد على المصادر الضعيفة ضعيفة، والمنهج العلمي لا يؤسس قضاياه وحقائقه لا على الضعيف من المصادر، ولا على الأدلة غير المنسجمة مع موضوع الدراسة، ولا على المنطلقات المنغمسة بالهوى والعصبية.

5.إظهار أخطاء النتائج المستنبطة: وذلك بكشف المقدمات الباطلة والأدلة الواهية التي يستند إليها المستشرقون، ومعلوم بأن ما بني على باطل فهو باطل.

6.الإطلاع على إضمار العداء للإسلام وما يكنون من أغراض دينية وسياسية: وهذه الخطوة من الأهمية بمكان، وإن كانت مقررة في القرآن بأوضح وأسطع دليل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ . [البقرة:120]، ولكن دون تحقيق ذلك جهود فكرية مضنية يجب أن تتعدى محور الأفراد، إلى الدول، بل إلى الأمة العربية والإسلامية.

7. البعد عن التعميم والتزام المنهجية العلمية: [1]

والتي تقتضي قدرا من التخصص والشمولية في الاطلاع عل مشارب الاستشراق وفئاته ومدارسه وأطواره، والمقياس الذي نتبناه في نقد الاستشراق والحكم عليه هو قوله تعالى:﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. [المائدة:08].

وبعد عرض هذه الخطوات التي تهدف إلى تأصيل ونقد ومحاسبة نشاط وكتابات المستشرقين ونقدها نقدا نزيها، والتي يجب أن يقوم بها الباحثون المسلمون، فإنه لا بد من لفت النظر إلى أن مقابلة إساءة المستشرقين للإسلام بالإساءة، ليس هو الحل الأمثل، بل الإسلام على نقيض من ذلك، وإن أقوم منهج في مقابلة إساءة المستشرقين

1 – ينظر: علي بن ابراهيم النملة: نقد العقل المعاصر: ص:38/36.

للإسلام هو أن يكتب وينشر وينشط الباحث المسلم المتخصص عن الموضوعات الإسلامية في إطار العمل العلمي الجماعي المنظم، ليس من موقع الدفاع عن الإسلام، فالإسلام نور الله الذي لا ولن يطفئه انسان ولا أناسي، بل من موقع نشر حقائق الإسلام للمسلمين وللغرب الذي لا يعرف حقيقة جلال وعزة وعظمة الإسلام، قبل أن تنشر من الغير.

وليكن الباحث العلمي الموضوعي والنزيه لسان الحق وعقل العلم وعين الحكمة وأذن النور التي تعكس كل شعاع من أشعة التشكيك والافتراء والطعن إلى اليقين بالدين الحق، وصدق الرسالة، وبراءة وطهارة الشريعة والعقيدة واللغة والحضارة من شبه المضلين ومزاعم المفترين.

والبحث العلمي يقتضي أن نتتبَّع ونتقصى مناهج المستشرقين من واقع كتاباتهم وبحوثهم حول الإسلام وحضارته، لا أن نأخذها من أقوالهم وشعاراتهم، ذلك أن الباحث عندما يواجه هذا السؤال الملح ألا وهو: ما هي المناهج التي يستخدمها المستشرقون في بحوثهم ودراستهم للإسلام؟ ينبهر بشعارات البحث باسم العلم، والموضوعية، والنقد التاريخي، فإذا أراد تلمس حقيقة هذه الشعارات والأقوال انبهر أيضا، ولكن لا للتطبيق الصارم لها، بل للتناقض العجيب الذي يجده بين النظرية والتطبيق، وبين الشعارات باسم العلم، وواقع البحوث من تحريف الحقائق، وتصيّد الروايات الشاذة والضعيفة.

إن مصداق هذا التناقض هو ما يعبر عنه رودي بارت بقوله: "فنحن معشر المستشرقين عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية والعلوم الاسلامية، لا نقوم بها قط لكي نبرهن على ضعة العالم العربي الاسلامي، بل على العكس، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام، ومظاهره المختلفة، والذي عبر عنه الأدب العربي كتابة، ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيه النظر، بل نقيم وزنا فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي أو يبدو وكأنه يثبت أمامه، ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر

المدونة لعالمنا نحن." [1]

فحقيقة هم لا يأخذون كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون إعمال النظر فيه، ولكن يأخذون بالمصادر والأدلة والأسانيد الضعيفة التي لم تثبت في ميزان المنهج العلمي الاسلامي، ويبنون عليها الآراء والنظريات، ويقدمونها وكأنها حقيقة علمية، غفل عنها علماء المسلمين.

وقد جاء في تعليق على مادة (الله) جلّ جلاله، في موجز دائرة المعارف الاسلامية، على بحث التعريف بكلمة (الله)، الذي قدّمه (ماكدونالد) –الذي حاول أن ينال من محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام، وهو يدخل إلى ذلك من منافذ هيأها له خياله واستنباطه–، أن "المطلع على أقوال هؤلاء الناس، يراهم يقبلون من الأحاديث أضعفها سندا، وأوهاها رواية، إذا وافق رأيهم وهواهم، وإن كان في كتاب من كتب التاريخ أو السير، أو غيرها بدون إسناد، ويحكمون بالكذب والوضع على أكثر الأحاديث الصحاح، مما أجمع المسلمون على صحته وثبوته، ولن تجد لهم قاعدة أو خطة يسيرون عليها في قبول الأحاديث أو رفضها. [2]

وهم بذلك يعمدون إلى أصل وأساس من أقوى دعائم الشريعة وهو الأحاديث النبوية يحاولون هدمه بالتشكيك فيه، وبالتالي فهم لا يرمون إلى التحقيق العلمي والبحث العقلي وإنما يرمون إلى التشكيك ثم إلى الشك. [3]

وأما ما يتعلق بأنهم يقيمون وزنا فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي، وكأن علماء المسلمين لم يهتموا بوضع منهج علمي لنقل الأخبار، فإن الرغبة في التجريح والطعن، أو البحث عن نقاط الضعف وتصيدها ومحاولة تشويه وتوهين العقيدة والشريعة الاسلامية، أبعدهم عن البحث العلمي الموضوعي كل البعد، بل جعل

1– رودي بارت: الدراسات الاسلامية والعربية في الجامعات الألمانية: ترجمة: مصطفى ماهر، (1967م)، القاهرة، ص: 10.

2– إبراهيم زكي خورشيد، وأحمد الشنتاوي، وعبد الحميد يونس، وآخرون: موجز دائرة المعارف الاسلامية: ط:01، مركز الشارقة للإبداع الفكري، (1418ه–1998م)، ج:04، ص:1040.

3– ينظر: إبراهيم زكي خورشيد وآخرون: موجز دائرة المعارف الاسلامية: ج:04، ص:1040.

منهجهم أوهن كبيت العنكبوت أمام المنهج العلمي القائم على قاعدة؛ إن كنت ناقلا فالصحة وإن كنت مدعيا فالدليل.

فالأسلوب العلمي أساسه التوثيق الدقيق، وصحة النصوص والأسانيد، والاعتماد على الأدلة والبراهين المنسجمة مع الدعاوى، ثم يأتي بعد ذلك الاستنباط.

فإذا كانت الكثير من النظريات عند المستشرقين مبنية على تخمينات لا سند لها، وعلى افتراضات لا أساس لها، وعلى أدلة ضعيفة، وحجج واهية، وعلى منطلقات ومقدمات باطلة، لا غرابة أن تأتي نتائج المستشرقين في بحوثهم، مخالفة لنتائج علماء المسلمين.

وبما أنه معلوم أن من أنكر الأصل أنكر التفصيل، فكيف إذن تكون نتائج من ينكر أصلا بأن القرآن وحي الله تعالى، إلى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وكيف تكون نتائج من ينطلق من أن القرآن من إنشاء محمد، بل ويؤسس على ذلك الأحكام التاريخية والأدبية وغيرها، وكأنها حقائق ومسلمات لا تقبل الرد أو النقاش وكل ذلك باسم البحث العلمي الجاد.

وكيف تكون نتائج من كانت مقدماته باطلة. إن النتائج برهان المقدمات كما يقولون في المنطق، وإنه لا يمكن للباحث المتدبر والفطن والمحقق أن تنطوي عليه نتيجة لباسها اسمه العلم أو الموضوعية أو القانون العلمي، أو الفكر الحر أو ما شابه ذلك، ومسماها الحقيقي الجهل المركب.

إنه التشكيك في المنطلقات والمقدسات والثوابت، لذلك "نحن لا نطلب من كل مستشرق أن يغير معتقده ويعتقد ما نعتقده عندما يكتب عن الإسلام، ولكن هناك أوليات بديهية يتطلبها المنهج العلمي السليم، فعندما أرفض وجهة نظر معينة لا بد أن أبين للقارئ أولا وجهة النظر هذه من خلال فهم أصحابها لهم ثم لي بعد ذلك أن أوافقها أو أخالفها." [1]

1- محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص:83.

هذا أسلوب الباحث الذي يهدف لكشف الحقيقة لا سواها، فهو لا يخشى من عرض آراء خصومه إذا كان الحق هو ما يريد فعلا.

إن أسلوب غالبية الباحثين الغربيين والمستشرقين في البحث يقوم على التماس الأسانيد الواهية، والاعتماد على الأحاديث الضعيفة غير الثابتة عند المحدثين، في طوايا كتب التاريخ والسير، والاعتماد عليها في تأييد ما يقررونه من آراء ونظريات.

وفي المقابل يغفلون النصوص والأخبار الثابتة والواضحة والصحيحة التي تناقض ما يقررون،فهم يكيلون في ميدان البحث العلمي بمكيالين؛ مكيال يجعلون فيه الضعيف والشاذ باسم العلم والموضوعية، قويا ومشهورا ونظرية علمية، وهنا بحثوا ونقبوا فعلا في تصيِّد هذه الأخبار الضعيفة.

ومكيال يشككون فيه في كل ما هو صحيح وثابت من الأخبار بكل مقاييس وموازيين المنهج العلمي، حتى وإن خالفوا المسلمات، وناقضوا الواقع، فهذا (جولد تسيهر) يصف احراق عثمان بن عفان رضي الله عنه لمصحفي عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب بأنه عمل تعسفي غير صالح. [1] مع اطلاعه الأكيد على تلقي المسلمين أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه بكتابة المصاحف بالقبول، بل وأجمعوا قبل ذلك على جمعه، ثم بعد ذلك على تدوينه واستنساخه والعمل بهذه المصاحف، حتى عُدَّ ذلك من أعظم مناقب عثمان رضي الله عنه.

إنه لظلم للحقيقة العلمية، واستهانة بمكانة الصحابة، وجهل بواقع المسلمين، ومغالطة للحقائق التاريخية، وتعسف في الحاق التهم دون أي معيار أو ضابط علمي أو خلقي.

ودافع العداء والكراهية للإسلام والمسلمين، جعلهم -تحت شعار النقد العلمي- يعتقدون عدم قدرة المسلمين على فهم النصوص فهما علميا، وأنهم هم من سيعلمون المسلمين فهم نصوص القرآن الذي ينكرونه مرة، ويشككون فيه مرة ،

1- ينظر:جولد تسيهر: مذاهب التفسير الاسلامي: ترجمة: عبد الحليم النجار، دار النشر: مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، القاهرة،(1374ه-1955م)، ص:20.

ويطعنون فيه مرة أخرى، فمن أعطاهم حق هذه الوصاية الفكرية غير الشرعية ولا المنطقية علينا؟ بل ومتى كان الإسلام يفوض غيره ليتصرف بيعا وشراء في حقائقه ومبادئه وهو أحق الناطقين والمتصرفين والمالكين لسنن وقوانين وأنظمة ومناهج الكون كله؟

إن هذه الوصاية الفكرية وهذا التصرف الذي لا يسوغه الدين الصحيح ولا العقل السليم، تعكس خبايا ما انطوت عليه نفوسهم، من خلال مرآة بحوثهم ومؤلفاتهم، فبحوثهم مرآة واضحة عاكسة لتشوهات آرائهم وانحرافهم عن المنهج العلمي السليم، وعن النظرة النقدية المجردة عن الهوى، وهذا طابع الكثير من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام.

وعلى هذا فإنه ومهما حاول المستشرق أن يتصنع الشعارات العلمية، "ومهما حاول أن يكون على درجة من الحيادية والتزام الموضوعية في أبحاثه القرآنية، فإنه لن يفلح في ذلك؛ لأن دراسات المستشرقين في مجال القرآنيات ليست كغيرها، لا لشيء إلا لكونها تنصبُّ على موضوع يرتبط بمسألة الوحي المحمدي الذي لا يؤمن به الباحث الغربي، ولا يمكن أن يتعاطف معه مبدئياً، وبالتالي لا بد أن تؤثر فيه قناعاته الدينية وخلفياته الفكرية في مجال البحث، كما أن المسائل القرآنية ترتبط بعالم الغيب الذي ليس بمقدور الحس أو العقل أن يدلي بكلمة فيها إلا بمقدار، إذ إن رؤية المستشرق العقلية والمادية لابد أن تمارس نوعا من التكسير والتجريح في حق القرآن الكريم وعلومه، فترتطم بذلك بالبداهات والمسَلَّمات." [1]

لذلك كله فإنه على الباحث المسلم أن يقف موقف الحذر، لا بعدم دراسة نتاج وبحوث المستشرقين، بل بالتحصن والدراية والاتقان لعلوم المسلمين من مظانها ومصادرها وعلمائها، ثم يقف على فساد بحوث غالبية المستشرقين بالدراسة العميقة، والكشف عن تهافت وزيف وخداع شعاراتهم باسم المنهج العلمي وما شاكله من

1- حسن عزوزي: آليات المنهج الاستشراقي في الدراسات الاسلامية، مطبعة آنفو، فاس، المغرب، (1428ه-2007م)، ص:15.

الشعارات البرّاقة.

إنهم يبطنون العداء والكراهية في غالبيتهم، أكثر مما يظهرون؛ وذلك عند استنطاق مناهجهم وآرائهم ومواقفهم، وصدق الحق إذ يقول: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾. [آل عمران: 118].

ثانيا: أساليب وخطوات المستشرقين في البحوث

إن الاستراتيجية الاستشراقية في البحث لدى طائفة كبيرة من المستشرقين، إنما تؤخذ من واقع دراساتهم وكتاباتهم وبحوثهم كما عرضنا في مقدمة هذا المبحث، ولمعرفة وتحديد منهج المستشرقين في البحث، ومدى تطبيقهم للمنهج العلمي، لا بد من تتبع واستقراء، واستخلاص طرق وآليات المنهج الاستشراقي في فهم النص القرآني، إما من حيث كيفية دراستهم وتوظيفهم لكتب علوم القرآن والتفسير في أبحاثهم، وإما من حيث طريقة تحليل واستنتاج ونقد النص القرآني.

ولا شك أن الأساليب والخطوات تتعدد من باحث لآخر، بالأخص في مواضيع دراسات العلوم الانسانية، وإن دراسة المستشرقين لموضوعات العلوم الاسلامية تعددت خطواته وأساليبه أيضا، ولكن ما من دراسة في موضوع محدد تحت اتجاه وحركة معينة إلا ولها نقاط تلتقي عندها، وأهداف تجتمع حولها، ومسالك تسلك تحت إطار عام، إلى درجة يصبح فيها نمط هذه الدراسة مميزا لدى المختصين والعارفين بشؤونها.

وعلى هذا فإن المتتبع لبحوث ونتاج المستشرقين، فيما يتعلق بالدرات الاسلامية، ليجد تشابها لدى غالبية المستشرقين من حيث الخطوات والأساليب والمنطلقات، لتشابه أهدافهم وأغراضهم إلى حد كبير، ولتميز نمط دراساتهم بكثرة الدعاوى والتشكيك في الإسلام وعلومه، باسم الشعارات العلمية، إلى درجة تخدع وتلدغ كل غافل أو غير مُلِم بحقائق الإسلام.

بل ويكاد يتفق منهج المستشرقين العام في الدراسات القرآنية على تعمد اختيار وانتقاء الأخبار الضعيفة، والروايات المنقطعة قصد بناء أحكامهم عليها، والتدليل بها على مقاصد وأغراض معينة. [1]

ومن ذلك الاعتماد على مروج الذهب للمسعودي، وطبقات ابن سعد، والأغاني للأصفهاني، وكتاب الفهرست لابن النديم، وكتاب الحيوان للدميري وغيرها من المصادر التي تعتمد على الروايات الضعيفة.

ولا بد من التأسيس ههنا إلى أن المستشرقين ينطلقون من التشكيك في مصادر المعرفة من المنظور الاسلامي، فهذا جولد تسيهر في كتابه العقيدة والشريعة يقر بمنطلقه هذا بقوله: "إن المعرفة التي لا تستند إلا إلى المصادر النقلية هي معرفة مشكوك فيها؛ لأنها تتعلق بعوامل لا يمكن أن يكون لها إلا قيم نسبية لإثبات ما يراد من وقائع وحقائق متعددة، تتعلق مثلا بالتأويل الذاتي، وبالمعنى المرتبط بخصائص الصور البلاغية من مجاز واستعارة ونحوهما.

وإنه لهذا لا يمكن أن تنسب قيمة مطلقة لمصادر مثل هذه المعرفة إلا في مسائل العمل الشرعي، وحتى في هذه المسائل نراها تترك مكانا مختلفة في النتائج التي يمكن أن تستخرج منها، وأما في مسألة العقيدة فليس لها إلا قيمة ثانوية في هذه الناحية يجب أن يكون السير من الأدلة العقلية، إنها فقط هي التي تسمح لنا بالوصول إلى اليقين." [2]

ومن هنا فلقد كان-كما يقول أبو الحسن الندوي- "من دأب كثير من المستشرقين أنهم يعينون لهم غاية ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، ثم يقومون لها بجمع معلومات -من كل رطب ويابس- ليس لها أي علاقة بالموضوع، سواء من كتب الديانة والتاريخ، أو الأدب والشعر، أو الرواية والقصص، أو المجون

1- ينظر: حسن عزوزي: المرجع السابق: ص:22

2- جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام (تاريخ التطور العقدي في الدين الاسلامي)، ترجمة: محمد يوسف موسى، ط:02، دار الكتب الحديثة بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، (1378ه-1959م)، ص:128.

والفكاهة، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها، ويقدمونها بعد التمويه بكل جرأة، ويبنون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم." [1]

وبعد هذا الكلام الذي يعبر عن الاطلاع الشمولي والعميق لأبي الحسن الندوي في تحديد الخطوات والأساليب التي ينطلق منها كثير من المستشرقين يمكن ترتيب هذه الخطوات كما يلي:

1. الانطلاق من تحديد الغاية والنتيجة المسبقة المراد تحقيقها: وفلسفتهم في ذلك أن البداية تكون بتصور وتوقع النهاية، ومن هنا فهم يعينون لهم غاية وهي تمثل النهاية، ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، قبل بداية البحث أصلا، وكأن النتيجة معلومة لديهم، وإن عارض ذلك المسلمات النقلية عند المسلمين، أو البديهيات العقلية عند أهل العلم والمنطق والفطرة.

2.جمع المعلومات التي تخدم النتائج المسبقة المراد تحقيقها: وبما أنه ذاك منطلقهم من تحديد الغاية والنتيجة المسبقة، فإن هذا يستلزم عندهم جمع المعلومات التي تخدم مقرراتهم ونتائجهم المسبقة، وبالطبع هذا يدفعهم دفعا إلى جمع معلومات لا قيمة لها في موازيين المنهج العلمي من مصادر لها علاقة بكل شيء، إلا بموضوع خدمة الحقيقة العلمية في موضوع الدراسة.

3.التمويه في تقديمها وعرضها بكل جرأة: إن هذا فعلا مما برع فيه المستشرقون، وهو التمويه بأساليب ملتوية، تخدع الناظر، وتعمي العقول عن الحقيقة، بحيث تري القارئ بكل جرأة مثلا أن حادثة لا أساس لها في المنهج التاريخي بأن التاريخ يثبتها، وأن النقد التاريخي يعضدها، وأن القوانين الاجتماعية والبيئية والنفسية صنعتها، وإن خالف ذلك إجماع المسلمين، ومعلوم أن مخالفة الاجماع جرأة، ومن هنا فإنه يمكن وصف منهج غالبية المستشرقين بالسفسطة. [2]

1 – أبو الحسن الندوي: المصدر السابق: ص:16.

2 – السفسطة لفظ اصطلاحي في علم المنطق، معرّب عن اليونانية، وأصله سفسط بمعنى غالط، وأتى بحكمة مضللة وكلام مموه، هي قياس مركب من الوهميات، بغرض إفحام الخصم وإسكاته

4.تأسيس النظريات بما يوافق أغراضهم وأهدافهم: فإذا كان منطلقهم ونتائجهم محددة مسبقا، ومعلومات اثبات ذلك لا قيمة لها في موازيين المنهج العلمي، فهل يغني عرضها بتمويه في الأسلوب وجرأة على الحق عقيمة، أن تثبت نظرية من النظريات أو مهما كان اسمها ومسامها؟

فهذا المستشرق **هنري لامنس** (Henri. LAmmans) (1872م-1937م):[1]

المستشرق البلجيكي الأصل الفرنسي الجنسية، والراهب الشديد التعصب ضد الإسلام، يكتب في السيرة النبوية، والخلافة الأموية، والعقيدة الإسلامية، له كتاب: (مهد الإسلام) (La berceau de l'Islam)، وكتاب (مكة عشية الهجرة)، و(مدينة الطائف العربية عشية الهجرة)، يفتقر افتقارا تاما إلى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها، كما يقول عبد الرحمن بدوي في موسوعة المستشرقين، حيث "تحامل (لامنس) على السيرة النبوية تحاملا شديدا، زاعما أن القرآن وحده هو المصدر الذي يعتمد عليه في بيان سيرة النبي، وأن كتب الأحاديث كلها موضوعة، من أجل تحقيق غايات معينة هي تمجيد حياة النبي، ولم يقم لكتب الحديث وكتب السيرة أي وزن، وهو في هذا لا يسوق أي دليل نقلي أو عقلي، ولا يرجع إلى مصادر أخرى عن السيرة، بل هو يلقي الكلام جزافا، ويعتمد على تحكمات ذهنية استقرت حسب معان ذهنية سابقة...وراح يخبط دون أدنى سند، أو برهان عقلي."[2]

وإلزامه الحجة بالتمويه، وإليها تنسب فرقة السفسطائية من قدماء فلاسفة اليونان قبل سقراط، إذ ينكرون المحسوسات والبديهيات؛ لأن الحقيقة عندهم ذاتية نسبية، وتختلف باختلاف الأفراد. ينظر: مانع بن حماد الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج:02، ص: 1071/1070.

1 - ينظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ط:03، دار العلم للملايين، بيروت، (1993م)، ص:503

2 - ينظر: عبد الرحمن بدوي: نفس المصدر: ص:504.

ومن هنا فإنه "يفهم النص فهما ملتويا خبيثا، أو يستخرج إلزامات بتعسف شديد يدل على فساد الذهن وخبث النية." [1]

فمثل هذه الدعاوى إنما هي قائمة على مجرد الخيال والتخمين والافتراض الذي أساس له، والتي تدل على أن جمع المعلومات وتوظيفها إنما هو لما يخدم النتائج المسبقة المراد تحقيقها.

وهذا المستشرق (جولد تسيهر) الذي يتلخص منهجه "في الاطلاع على الكتب والوثائق والنصوص، ثم الاعتكاف عليها دارسا ومحللا وناقدا، وهو لا يعتمد على المشاهدة المباشرة، ولكنه يغوص في النصوص مطبقا منهج المطابقة والمقابلة بينها، محاولا النفاذ من خلالها إلى ما تخفيه من مقاصد مستترة، وبرع حقا في مجال الدراسات المقارنة، فكان يميز بدقة بين الديانات والمذاهب المختلفة، ويحاول إبراز منهج الأثر والتأثير بينهما، ويستخدم غالبا المنهج الاستدلالي، لأنه يعتمد في دراسته على نفوذ بصيرته، وعمق وجدانه، وخطؤه الأساسي يتحدد في تكوين أفكار مسبقة على الموضوع الذي يدرسه، ويحاول قدر جهده أن تأتي نتائج دراسته متوافقة وتلك الأفكار. وهو بذلك لا يدع هذه النصوص تكشف عمّا وراءها، ولكنه يحاول ليّ رقبتها لتتوافق وأفكاره المسبقة." [2]

وخطؤه المنهجي الآخر يتمثل في اعتماده على منهج الأثر التاريخي، وذلك بمحاولته دراسة مصادر الإسلام الخارجية التي اعتقد أن لها الأثر الأكبر في تطور الديانة الإسلامية. [3]

ومن هنا يتبين أن سلوك أغلب المستشرقين عند دراسة النص القرآني يتميز بأنه سلوك منحاز، فهو مرة يكون باتجاه الغض من قيمة التراث الإسلامي، وإظهاره

1 - ينظر: عبد الرحمن بدوي: المصدر نفسه: ص:504.

2- ساسي سالم الحاج: نقد الخطاب الاستشراقي، ج:01، ص:178/179.

3- ينظر: ساسي سالم الحاج: نفس المرجع: ج:01، ص:179.

مشوَّها، وأخرى باتجاه الطعن بالقرآن الكريم بوسائل متعددة، وذلك كالتالي: [1]

ففي الأول كانوا يحاولون من خلاله إظهار الفكر الإسلامي بأنه فكر متناقض من داخله، وذلك بتقديمه تقديما سطحيا للمتلقي الغربي، أو المستغربين من العرب والمسلمين الدارسين في جامعاتهم، ويكون ذلك باستعمال مناهج صُبغت بصبغة غربية، وفق مضامين ورؤى مسيحية قديمة أو متنورة بآثار الحركة التنويرية التي اجتاحت أوربا بعد فترة القرون الوسطى فيها، فجاءت مناهج موتورة بفعل العداء للدين ولكل ما يمتُّ للتراث عندهم.

أما في الثاني فكانوا يعملون على ضرب الإسلام من خلال الطعن بدستوره المتمثل بالنص المقدس، منطلقين في ذلك من معتقداتهم التي ألغت القدسية من كل شيء.

وهذا مونتجومري وات في كتابه (فضل الإسلام على الحضارة العربية)، يلقي بدعاويه حول الحضارة الاسلامية؛ بالتأسيس على أن الفتح الاسلامي في أوربا كان استيلاء واحتلالا، وغزوا همجيا، واستمرارا طبيعيا لحياة الغزو عند العرب، وأنه بدأ في اسبانيا وأنها فوجئت بذلك، بقوله: "جاء جلّ التأثير الحضاري في أوربا عقب استيلاء المسلمين عل اسبانيا وصقيلية." [2]

وبعدها يقول: "ربما يكون سكان إسبانيا الذين فوجئوا بالغزو الاسلامي عام (711م)، قد نظروا إليه وكأنه صاعقة من السماء، أما بالنسبة للمسلمين أنفسهم فقد كان الغزو اسمرارا طبيعيا لنشاط عرفوه منذ حياة محمد النبي. وقد جاء هذا النشاط نتيجة تحول طرأ على طبيعة غزوات البدو في الجاهلية، فقد كان من عادة قبائل البدو

1- ينظر: عادل عباس النصراوي: مقال: أساسيات فهم النص القرآني ومصادر دراسته عند المستشرقين، مجلة: دراسات استشراقية، العدد:07، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، (1437ه-2016م)، ص:14/13.

2- مونتجومري وات: فضل الإسلام على الحضارة العربية: ترجمة: حسين أحمد أمين، ط:01، دار الشروق، بيروت، القاهرة، (1403ه-1983م)، ص: 09/08.

العربية لقرون عدة سبقت الإسلام تشنّ غارات على القبائل الأخرى." [1]

ولا يكتفي بذلك بل يدعي أن الحافز المادي هو سبب الجهاد عند المسلمين، وأن دخول القبائل في الإسلام لم يكن عن اقتناع، بل كان تجنبا لإغارة المسلمين عليهم، محاولا تخريب وتشويه أصل من أصول العقيدة الإسلامية، ومتجاهلا المسلَّمة والقاعدة الثابتة في الإسلام والتي تقضي بحرية الاعتقاد في قوله تعالى: لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾. [البقرة: 256]. وهذا في قوله: "وقد كان الجهاد في السنوات الأولى موجها ضد القبائل الوثنية المجاورة غير الداخلة في حلف مع المسلمين، غير أنه بمرور الوقت أدرك معظم هذه القبائل أن أبسط وسيلة لتجنب إغارة المسلمين عليها هي أن تعتنق الإسلام وتنضمّ إلى الحلف." [2]

وعندما تكلم على مكانة الذميين في الاسلام يدعي أن حرمانهم من بعض الحقوق في نظره، أنه حطّ من شأنهم، بقوله: "لم يسمح لهم بالانخراط في سلك الجند، أو الزواج من مسلمات، كما كانت مناصب الدولة العليا عادة في غير متناولهم، وقد يشعر الذمي إزاء هذا الحرمان؛ بأنه مواطن من الدرجة الثانية." [3]

ويلقي بدعوى تثير العُجب والاستغراب والتساؤل مفادها أن المسلمين وضعوا حدا للإقبال على الدخول في الإسلام، الذي تسبب في نقصان ما يدخل بيت المال من الجزية. [4]

وقد تجاهل الحديث الصحيح والمسلّم به عند المسلمين والذي يعد شعارا لهم في الدعوة إلى الله تعالى وهو ما أخبر به سهل رضي الله عنه ويعني ابن سعد، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر: « فو الله لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من أن يكون لك حمر النعم». [5]

1- مونتجومري وات: نفس المصدر: ص: 13.

2- مونتجومري وات: المصدر السابق: ص: 14.

3- مونتجومري وات: نفس المصدر السابق: ص: 15/14.

4- مونتجومري وات: المصدر نفسه: ص:15.

5- صحيح البخاري: كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل من أسلم على يديه رجل، رقم:3009،

إن هذه الطريقة في البحث عن الحقائق مبنية على الظن والهوى من منطلقها إلى منتهاها، في غايتها، وفي مصادر معلوماتها، وفي أسلوب عرضها، وبالتالي في نتائجها، ومهما تكن هذه النظريات، وما أكثرها خاصة في ميدان اللغة والاجتماع والاقتصاد والقانون والتربية، فإن المنهج العلمي في الإسلام باستعداده أن يؤصل لهذه النظريات من أثمن وأسمى وأرفع تأصيل تملكه أمة من الأمم وهو النص القرآني؛ فقط يكون ولاؤنا للحقائق العلمية الموضوعية، واتباع خطوات مرسومة من العلم نفسه، بكل وضوح ودقة، وخالصة ومخلصة للحق والحقيقة.

ثالثا: أسلوب المستشرقين في عرض البحوث والدراسات:

1.ذكر العيب وسط المحاسن لتمكينه في النفوس:

من أساليب التمويه في تقديم وعرض دراسات كثير من المستشرقين، ذكر العيب وسط المحاسن لتمكينه في النفوس، وذلك بكل جرأة وبراعة، حتى أن هذا الأسلوب غدا ميزة تعرف بها كتابات المستشرقين لدى أهل الرسوخ في العلم من المسلمين، بل حتى عند ما يعرف بالمستشرقين المنصفين أنفسهم. ولقد كان ولا يزال هذا الأسلوب من أخطر ما يستخدمه المستشرقون في ضرب حقائق الإسلام، دون أن يشعر القارئ أنه حصل على جهل مركب من حيث يدي، أو لا يدري، وإن ذلك ليعمي العقول عن الحقائق المقترنة بها، ولا يزال المستشرق في أسلوبه هذا وتمويهه حتى يشككه في

ج:04، ص:60. صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم:2406، ج:04، ص:1872. ونص الحديث: هو ما أخبر به سهل رضي الله عنه ويعني ابن سعد، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر: «لأعطين الراية غدا رجلا يفتح على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فبات الناس ليلتهم أيهم يعطى، فغدوا كلهم يرجوه، فقال: «أين علي؟»، فقيل يشتكي عينيه، فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه فقال: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فو الله لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من أن يكون لك حمر النعم». محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، المصدر السابق: ج:04، ص/60.

الثوابت والأصول، فإذا بهذا المنخدع الذي تمكن هذا العيب من نفسه، تُطمَس عنده كل المحاسن الأخرى، وكأنه لم ير ولم يعقل ولم يسمع إلا هذا العيب الملفق والمفترى.

ومعلوم ما للمدح من تأثير وسحر على الممدوح عامة، فكيف إذا كان بهذا الأسلوب الذي تذكر فيه المحاسن ويستدرك عنها بما يكاد يلغي ذلك بالتواء ومكر.

فهذا المستشرق (بروكلمان) في كتابه تاريخ الأدب العربي في الباب الثامن في الفقه بينما وهو يأتي على استعراض الحركة التاريخية للفقه الإسلامي من وجهة نظره واستنتاجه، يذكر ما يثير الصراع المذهبي تأسيسا على مغالطة في أصول المذاهب الإسلامية، يقول (بروكلمان): "وبادر الفقهاء مبكرين كذلك إلى تنظيم الأحكام التشريعية المطبقة على الإسلام وإحكام بنائها على أصول وقواعد، وترتيبها على أبواب وفنون، وكان الشافعي أخص من اضطلع بهذه المهمة الثانية للفقه الإسلامي، وذلك بتهذيبه القياس وحسن استعماله، وقد كان لمذهبه أبعد التأثير بسبب ذلك، إذ تبعه أكثر المتأخرين، وإن لم يزل كثير من الفقهاء يتعصبون لظاهر النصوص، ويسرفون في مدافعة القياس والرأي، كما هو على وجه الخصوص مذهب أحمد بن حنبل." [1]

ولا يكتفي بذلك بل يقول عن أبي حنيفة زعيم مدرسة أهل الرأي "وكان أبو حنيفة يميل في مسائل الكلام إلى مذهب المرجئة." [2]

ثم يأتي بعد ذلك ليمكن لحديثه في النفس ويقنع القارئ بموضوعيته في البحث فيقول: ومذهب الشافعي ينحو إلى الجمع والتوفيق بين مذهب أهل الحديث الذي سار عليه مالك، ومذهب أهل الرأي الذي أخذ به أبو حنيفة، ويعدّ الشافعي مؤسس علم أصول الفقه، الذي يرسم المناهج وينظمها لاستخراج الأحكام من أدلتها، ويحرر طرق الاجتهاد والاستنباط." [3]

1 – كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، تعريب: عبد الحليم النجار، ط:03، دار المعارف، القاهرة، ج:03، ص:233.

2 – كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي: نفس المصدر: ج:03، ص:236.

3 – كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي: المصدر نفسه: ج:03، ص:293.

ومعلوم أن من أصول الامام الشافعي الاعتماد على ظواهر النصوص من القرآن والسنة من جهة، وأنه لا يوجد أي مدافعة أو صراع بين المذهب الشافعي أو الحنبلي أو غيره من المذاهب، بل هو اختلاف رحمة، وهو اختلاف تنوع وتكامل من جهة أخرى.

إن هذا الأسلوب مدخل من مداخل المستشرقين في عرض بحوثهم ودراساتهم، فهم "في أغلب الأحيان يذكرون عيبا واحدا ويجودون لتمكينه في النفوس بذكر عشرة محاسن ليست لها أهمية كبيرة، وذلك كي يقف القارئ خاشعا مؤدبا أمام سعة قلوبهم وسماحتهم، ويسيغ ذلك العيب الواحد الذي يكفي لطمس جميع المحاسن. [1]

ولو أن هذا الغرض من هذا الأسلوب يكتفي من القارئ بالانشغال عن التمحيص والتحليل والنقد الحر ربما لكان أقل خطرا، ولكن هيهات فلا مفرَّ من هذا الأسلوب بالنسبة للقارئ حتى يطمس عنده كل حسن، ويشيد بكل قبح وعيب ملفق.

وأما الغرض الآخر من هذا الأسلوب في ذكر العيب وسط المحاسن؛ فهو القبول الفكري بسماحة وسعة قلوب المستشرقين من جهة، وتَقَبُّل وصايتهم وآرائهم تبعا لذلك من جهة أخرى.

2.تصوير الدعوة أو الشخصية على أنها نتاج البيئة أو العوامل ورد فعلها الطبيعي:

لما كان المستشرقون من أتباع الغرب المادي، وكانت النظرة العقلية المادية البحتة للأشياء هي قانون الحضارة الغربية، فإن الغرب عامة والمستشرقون خاصة، انطلقوا في تعاملهم مع الحقائق الطبيعية والانسانية من منطلق تقديس المادة، ومن هنا كان العجز في التعامل مع الحقائق الروحية من هذا المنظور المادي، والذي مثلته المادية التاريخية [2] في تفسير التاريخ البشري.

---

1 – أبو الحسن الندوي: المصدر السابق: ص:17.

2 – المادية التاريخية هي: "مفهوم مادي للتاريخ البشري، ومحاولة لتفسيره انطلاقا من قوانين المادية الجدلية، في دراسة وتفسير الحياة الاجتماعية وتطور المجتمعات، على أن الوضع المادي والاقتصادي

إن التعامل مع الاسلام وشخصيات الاسلام، من منظور العقلية الغربية المادية جعل المستشرقين لا يصورون الدعوة أو الشخصية إلا أنها نتاج بيئي، أو رد فعل طبيعي، "إنهم يصورون بيئة دعوة أو شخصية وتاريخها وعواملها الطبيعية بلباقة وبلاغة، تصوران أن هذه الدعوة والشخصية لم تكونا إلا نتاج هذه البيئة أو العوامل ورد فعلها الطبيعي، وكأن البركان كان متهيأ للانفجار، فتناولته هذه الشخصية بشرارة فانفجر، فينكر القارئ أي اتصال بمصدر غير مادي، ولا يعترف لهذه الشخصية أو الدعوة بعظمة أو تأييد إلهي، أو إرادة غيبية." [1]

وهذا الأسلوب مطبق في كتاب تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، فمثلا يرجع دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة دينية فرضها الجو الذي ساد الجاهلية، حيث يقول في ذلك: "كانت الجاهلية العربية تعبد رموز القوة والعظمة عبادة بدائية، وتؤله مظاهر الطبيعة المختلفة، على وجه بعيد عن الروحانية المهذبة الرقيقة، ولكن هذا المسلك الديني لم يقنع بعض النفوس العميقة التي عرفت في اليهودية والنصرانية نماذج دين أجل وأسمى.

وقد تحدث الرواة عن كثير من أمثال أولئك الحنفاء، الذين عزفت نفوسهم عن الوثنية وإن اعتنقوا واحدة من ملتي التوحيد، ولكن محمدا التاجر المكي هو الذي ساقته ضرورة دينية أعز وأقوى إلى أن يعلن صلته بالله، وكان معاصرو محمد يعرفون

هو الذي يكيف شكل الحياة البشرية في أي وقت من أوقاتها، وأي تطور من أطوارها، ويزعم أنه سابق لها، لأن المادة عندهم تسبق الوعي، ولا يمكن للوعي أن يسبق المادة، وهذا الوضع المادي والاقتصادي في تطور دائم، ومن ثم فإن الأفكار والمشاعر والمؤسسات والنظم التي تنبثق عنه في تطور دائم تبعا لذلك. وقد استعمل هذا المفهوم لأول مرة من قبل (فريدريك إنجلز)، ثم تبناه (كارل ماركس)، للتعبير عن مفهومها الجديد للعالم. وقد تعرضت المادية التاريخية للنقد لنزعتها الحتمية، وإخراج السنن الالهية من التدخل في الكون، وتجاهلها لدور الوعي وتأثيره في البنية التحتية، وطبيعة الانسان." مانع بن حماد الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج:02، ص: 1138.

1 - أبو الحسن علي الحسني الندوي: الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين، ط:03، (1406هـ-1986م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص:17.

الله ربا للعالمين فوق الأصنام والأوثان، كما ساقته هذه الضرورة نفسها إلى دعوة بني وطنه لعبادة الله وحده لا يشركون به شيئا." [1]

والأسلوب نفسه مطبق في كتاب العقيدة والشريعة لجولد تسيهر، حيث قسم كتابه هذا إلى مقدمة وستة أقسام؛ القسم الأول: محمد والإسلام، القسم الثاني: تطور الفقه، القسم الثالث: نمو العقيدة وتطورها، القسم الرابع: الزهد والتصوف، القسم الخامس: الفرق، القسم السادس: الحركات الدينية الأخيرة.

فمثلا يصف دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بأنها ثورة اجتماعية، بعد أن قدّم لذلك بذكر الظروف المادية والتاريخية التي سبقت الدعوة بقوله: "لقد كان مسقط رأس محمد[مكة]، مركزا من المراكز الهامة الخطيرة لعبادة الأوثان والأصنام، كما كان مقرا للكعبة المقدسة والحجر الأسود، ومع هذا كانت المادية وكبرياء الجاهلية وتحكم الأغنياء في الفقراء هي المميزات السائدة عند أشراف المدينة الذين كانوا يفيدون من سدانة الكعبة فوائد مادية لها خطرها، إلى جانب ما كان في هذه السدانة من ميزة دينية وشرف قومي.

رأى محمد هذا، فأخذ يشكو من اضطهاد الفقراء، وطمع الأغنياء، وسوء المعاملة، وعدم المبالاة بالصالح العام، وواجبات الحياة الإنسانية، والأشياء الفاضلة الباقية التي تقابل هذه الحياة الدنيا الزائلة ومتاعها، ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾. [الكهف:46]، وعندئذ قابل بين هذه الأمور التي أثارت نفسه، والأثر الذي كان باقيا وحيّاً فيه، وهو الأثر المدين به للتعاليم التي سبق أن تلقاها وتفتحت لها نفسه وأشربها قلبه." [2]

كما يرجع دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في بدء رسالته إلى عوامل نفسية تتمثل في تأملات ورؤى عن يوم الحساب واليوم الآخر استقاها مما سمعه أو عرفه، وليس مما أوحاه الله تعالى إليه بقوله: " وفي بدء رسالته كانت تأملاته تأخذ طرقها إلى الخارج

1 - كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي: المصدر السابق: ج:01، ص:134.

2- جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص:14/13.

في شكل أمثال مضروبة للحياة الأخرى(eschatologiques)كانت تفرض نفسها على مخيلته بقوة تزداد يوما بعد يوم، وهذه التأملات هي التي كونت الفكرة الأساسية التي بنى عليها تبشيره، وما سمعه أو عرفه عن يوم الحساب، الذي سيقع يوما ما على العالم كالصاعقة، أخذ يطبقه على الأمور التي يراها حوله، والتي كانت تملأ نفسه اشمئزازا.

فنراه يواجه عدم اكتراث سادة مكة وكبرياءهم وجبروتهم بإنذارهم بيوم الحساب القريب منهم، ويرسم بحروف من نار صورة البعث وصورة الحساب، وتفاصيل كل ذلك كانت تتمثل له في رؤاه الانجذابية في أشكال مروعة مخيفة." [1]

ومما يمثل به لهذا الأسلوب في ارجاع الدعوة لعوامل شخصية وبيئية وسياسية ومادية هو ما عبر عنه (جولد تسيهر) عقب دعواه بانتشار الدعوة بالسيف.

فبعد أن استدل بنصوص مبتورة مجزأة عن سياقها وسوابقها ولواحقها بقوله: "إنه من الواضح أننا لا نستطيع أن نطبق في العصر المدني على عمل محمد المثل القائل: الكلمة أقوى من السيف، فمنذ تركه مكة تغير الزمن ولم يصر واجبا بعدُ الاعراض عن المشركين، [سورة الحجر:94] [2] أو دعوتهم كما يقول القرآن: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ .﴾ [النحل:125]، بل حان الوقت لتتخذ كلمته لهجة أخرى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٍۚ ﴾.

1- جولد تسيهر: نفس المصدر: ص:14.

2- يقصد بها قوله تعالى: ﮋ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﮊ [سورة الحجر:94]. أي فاجهر به وأظهره، من قولهم: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا، كقولك: صرح بها. وهذه الآية الكريمة أمر الله فيها نبيه صلى الله عليه وسلم بتبليغ ما أمر به علنا في غير خفاء ولا مواربة. وفي هذه الآية قولان للعلماء: أحدهما: أي لا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، ولا يصعب عليك ذلك، فالله حافظك منهم. والآية على هذا التأويل معناها: فاصدع بما تؤمر أي بلغ رسالة ربك، وأعرض عن المشركين، أي لا تبال بهم ولا تخشهم. الوجه الثاني: وهو الظاهر في معنى الآية أنه كان في أول الأمر مأمورا بالإعراض عن المشركين، ثم نسخ ذلك بآيات السيف. ينظر: محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج:02، ص:109/110.

[التوبة:05] [1]، ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. [البقرة:244]." [2] [3]

ها هو يرجع الدعوة إلى الدور الشخصي والتغير السياسي بقوله "وبعد أن كانت الرؤيا تكشف له انهيار هذا العالم السيء، انتقل فجأة إلى تصور مملكة في هذا العالم، وقد أدى هذا الطابع إلى نتائج كانت محترمة بسبب التغير السياسي الذي أثاره في الجزيرة العربية نجاح تبشيره، والدور الشخصي الذي قام به، وكان له الأثر الكبير في الدعوة." [4]

ثم يرتِّب على هذه الآثار في زعمه انتقال الدعوة إلى السيف بأسلوب يدل عل

1- ولكن الاقرار بالشهادتين وتوبتهم بخلع الأوثان وعبادة الله تعالى بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة تعصم دماءهم وأموالهم، كما في حديث البخاري: صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ». صحيح البخاري: كتاب: الايمان، رقم:25، ج:01، ص:14. ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج:03، ص:365.

2- جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص:34.

3- سياق هذه الآية جاء في معرض تشجيع المسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة، وأن الموت إذا لم يكن منه بد ولم ينفع منه مفر فأولى أن يكون في سبيل الله، وذلك بإعلامهم بأن الفرار من الموت لا ينجي، وذلك في الآية التي سبقتها: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾. [البقرة:243] فإذا علم الانسان أن فراره من الموت أو القتل لا ينجيه، هانت عليه مبارزة الأقران، والتقدم في الميدان. والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثا على الجهاد وأن هذا هو مراده بالآية هو ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله بقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. [البقرة:244]، وصرح بما أشار إليه هنا في قوله: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾. [الأحزاب:16]، وهذه أعظم آية في التشجيع على القتال، لأن تبين أن الفرار من القتل لا ينجي منه ولو فرض نجاته منه فهو ميت عن قريب. ينظر: الزمخشري: الكشاف: ج:01، ص:378. ينظر: الشنقيطي: أضواء البيان: ج:01، ص:145.

4- جولد تسيهر: نفس المصدر: ص:34.

حقد دفين موروث من خلفيته اليهودية، ولمز وسخرية في كلامه للحط من شخص النبي صلى الله عليه وسلم، في قوله: "فهو الآن يحمل السيف في العالم ولا يكتفي بعصاه التي يضرب بها الأرض، ولا بنفثات شفتيه لإبادة الكفرة، بل هو نفير الحرب الذي كان ينفخ فيه، وهو السيف الدامي الذي رفعه لإقامة مملكته، وفي رواية إسلامية متواترة نتبين منها مهمته مركزة فيها؛ إنه حمل التعب الذي ورد في التوراة وهو نبي القتال والحرب." [1]

وفي الأخير وبعد هذه المقدمات التي قدمها ها هو يقرر استنتاجه بأن البيئة والعامل المادي كان لهما الأثر الكبير في الدعوة بقوله: "إذا البيئة التي شعر أن من واجبه العمل فيها بأمر الله، لم تكن لتتيح له أن يعلل نفسه براحة مأمونة...بل كان عليه أن يقوم بكفاح مادي في الأمة التي بُعث فيها وفي العالم كله، لضمان ذيوع دعوته والاعتراف بسيطرتها وتعاليمها، وكان هذا الجهاد المادي العالمي هو الوصية التي تركها محمد لخلفائه." [2]

وهذا الأسلوب هو طابع الدراسات الاستشراقية في التعامل مع حقائق الاسلام، ذلك أنهم يهدفون إلى إنكار التأييد الالهي بأي وسيلة كانت إلا طريق الوحي، أو التشكيك في الارادة الغيبية، أو تشويه المفاهيم الاسلامية، لما في ذلك من قطع القارئ عن الحقائق الروحية، المتعلقة أولا بربوبية الرب، من إفراده بالخلق والرزق والتدبير والاحياء والاماتة والتصريف والتدبير، والمتعلقة ثانيا بألوهية الله عز وجل من افراده بالعبادة والعبودية، وما ينجم عن ذلك من آثار في ضرب العقيدة في أساسها، وما يتبعه من التشكيك في الغيبيات، باعتبارها ما غاب عن الحواس، والذي ينافي ما عندهم النظرة المادية للإيمان بالأشياء.

3.دس السم في كتاباتهم بمقدار:

1- جولد تسيهر: المصدر نفسه: ص:35/34.

2- جولد تسيهر: المصدر السابق: ص:35.

كما أنه لا يمكن لمن يأكل أكلا دس فيه السم ولو بمقدار قليل أن يلحقه الوجع أو المرض أو الهلاك، فكذلك لا يمكن لمن يقرأ بحثا من بحوث كثير من المستشرقين، إلا ويجد فيه أنه دس فيه سم بمقدار المرض النفسي، أو الصداع والانحراف الفكري، "وكثير من هؤلاء المستشرقين يدسون في كتاباتهم مقدارا خاصا من السم، ويحترسون في ذلك، فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم، حتى لا يستوحش القارئ ولا يثير ذلك فيه الحذر، ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف." [1]

ومثل ذلك ما قاله بروكلمان عن الصحابي الجليل ترجمان القرآن عبد الله عباس رضي الله عنهما، وهو يقابل بين أمرين وكأن أحدهما الأصل والثاني الفرع، وكأن على القارئ إما أن يقبل بهما معا وإما أن يردهما معا، مع تجاهله لما في ذلك من التناقض لمنهج علماء المسلمين في فهم النص القرآني، يقول: "استخدم ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن العباس روايات أهل الكتاب لتفسير القرآن كما استشهد على الصيغ اللغوية بأبيات من الشعر الجاهلي." [2]

ومثال ذلك أيضا ما يلمز به جولد تسيهر إلى عدم صلاحية القرآن لكل زمان ومكان، وإلى محدودية العمل به في خلال العشرين السنة الأولى منه، مع المدح له باعتباره موضع إعجاب عظيم والالتواء في ذلك بأنه من الأعمال الأدبية العالمية بقوله: "ومن الخطأ الخطير أن ننسب للقرآن أكبر القيم في بيان طابع الإسلام بوجه عام، كما أننا من باب أولى لا نستطيع أن نؤسس حكمنا على الإسلام مستندين إلى هذا الكتاب وحده المقدس لدى الأمة الإسلامية، والواقع أن هذا الكتاب لم يحكم الإسلام إلا في خلال العشرين سنة الأولى من نموه. ففي خلال حياة الإسلام التاريخية كلها، ظل القرآن في رأي أتباع دين محمد عملا أساسيا محترما باعتباره موحى

1 – أبو الحسن الندوي: المصدر السابق: ص:17.

2 – ينظر: كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، تعريب: يعقوب بكر، ورمضان عبد الوهاب، ط:03، دار المعارف، القاهرة، ج:04، ص:07.

به، كما ظل كذلك موضع إعجاب عظيم إلى حد لم يظفر به أي عمل من الأعمال الأدبية العالمية." [1]

وهنا لا بد من التنبيه على أن أسلوب المستشرقين في عرض البحوث والدراسات، بذكر العيب وسط المحاسن لتمكينه في النفوس، أو تصوير الدعوة أو الشخصية على أنها نتاج البيئة أو العوامل ورد فعلها الطبيعي، أو دس السم في كتاباتهم بمقدار، "أشد خطرا على القارئ من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء، ويصعب على رجل متوسط في عقليته أن يخرج منها، أو ينتهي من قراءتها دون الخضوع لها." [2]

ولا بد من التنبيه إلى أنه قد انتهى الأمر إلى لون من المكر والالتواء بطرق البحث بدرجة يصعب معها إدراك الحد الفاصل بين الاطراء والثناء من جهة، وبين التشويه والهجوم من جهة أخرى.

بل ولقد أصبح من المستساغ في ظل تعدد المناهج وتشابكها، أن يكتب مستشرق عن العقيدة الاسلامية بحوثا يكون له شأن بين بني قومه أو بين من يكتب بلغتهم، في حين أن هذه البحوث إذا ما عرضت على أصول العقيدة الاسلامية ومنهجها تنتهي إلى النقيض. [3]

وكلا الأسلوبين، أسلوب العِداء وشحن الكتب بالكذب والافتراء، والذي كان في بداية نشأة الاستشراق كما تبين في الفصل الأول في المطلب الأول من المبحث الثاني، وأسلوب التمويه في ذلك، والذي يعتبر من أساليب المستشرقين الذي بدأ من عصر النهضة، يعتبران من التجديد في الأسلوب الذي يقتضيه كل عصر، إلا أنه وكما هو معلوم؛ أن خطورة العدو الخفي أخطر فتكا من خطورة العدو الظاهر، لإمكانية الاستعداد للثاني، وصعوبة الاحتراز من الضربة المفاجئة من الأول، خاصة إذا جاء

1- جولد تسيهر: المصدر السابق: ص:41.

2 - أبو الحسن الندوي: المصر السابق: ص:17.

3- ينظر: أحمد علي الملّا: دراسة في علم العقيدة الاسلامية في ضوء الكتاب والسنة: ص: 200.

بلباس العلم، ولسان النصح والحق والموضوعية، وسلاح شعاره النقد العلمي النزيه، وباطنه النقد الهدام للثوابت والأصول الإسلامية.

ولا بد من التنبيه أيضا إلى أن تأثر بعض المسلمين بهذه المناهج والأساليب الملتوية والاتجاهات الاستشراقية العلمانية، إنما هو نتيجة الجهل بطبيعة الدين الإسلامي من جهة، والجهل بمنطلقات ومصادر المستشرقين في مناهجهم وكتاباتهم من جهة ثانية، وصعوبة تمحيص البحوث التي اجتمع فيها سوء الظن والحقد والعداء، مع سوء الفهم للقرآن وللإسلام من جهة ثالثة، وبالأخص يكون ذلك عند عدم التخصص والاطلاع الشمولي لنتاج المستشرقين وخلفياته الفكرية والدينية.

4.تصيد مواضع الضعف والعورات في كتابات كثير من المستشرقين:

ما من منهج يعتمد على تصيد نقاط الضعف إلا واشتهر، وما من مخالف للإجماع إلا وعُرِف، وما من مدعَّم بالمال أو السياسة إلا واستحى من الجهر بالحق في موضعه.

إن هذا هو التصوير الفكري لطائفة كبيرة من المستشرقين، التي كان دأبها البحث عن مواضع الضعف في الشريعة الإسلامية، والحضارة، والتاريخ الإسلامي، دون مراعاة لا للمنهج العلمي القائم على الموضوعية، ولا لاتفاق علماء المسلمين، ولا بقداسة الحق واحترام النفس من أن تبيع مبادئها خدمة للسياسة بمال قلّ أو كَثُر.

يقول (بروكلمان) في الباب السادس المخصص لعلم الحديث: " بعد أن توقفت الحركة الكبيرة لجمع الحديث وتهذيبه بالفراغ من وضع مجموعاته المعتمدة، انقطع منذ ذلك الحين كل نتاج خلاّق في هذا الميدان، ولكن ظل علم الحديث يشغل كثيرا من المؤلفين، فصنعوا من المجموعات الكبيرة مجموعات صغرى، وذلك بترك الاسناد والاهتمام أكبر الاهتمام بالمحتوى وأثره التثقيفي، وأقبلوا بصفة خاصة على وضع الكتب التي في ظنِّهم مبادئ الدين الأساسية في أربعين حديثا استنادا إلى عبارة في هذا الصدد للرسول الكريم. " [1]

1 – كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي: المصدر السابق: ج:06، ص:171.

ثم ينتقد عمل رجال الحديث بقوله: "وإذا كانت هذه الكتب قد وضعت للجمهرة الكبرى من الناس، فقد اتجهت كتب أخرى إلى دائرة المتخصصين الضيقة، وذلك لأنها جمعت بعناية كبيرة كل ما كان معروفا عن حياة رواة الحديث، واستطاعت وضع مقياس لتوثيقهم، أو لأنها بحثت في روايات مفردة، بحثا قائما على النقد والتمحيص، والواقع أن هذا النقد لم يصطنع إلا قواعد علم الرجال الثابتة منذ زمن طويل، ولهذا لم يخرج إلى النور وجهات نظر جديدة مثمرة، ويمكن القول بوجه عام إنه لا يوجد ميدان من ميادين العلم بادرت فيه إلى السيادة عادتا الاختصار والتجميع اللتان تتسم بهما عصور الاضمحلال الشديد، كما بادرتا في علم الحديث." [1]

هذا هو الأسلوب المنتهج من كثير من المستشرقين في بحوثهم، إنهم " يركزون كل جهودهم ومساعيهم على تعريف مواضع الضعف في تاريخ الإسلام ومجتمعه ومدنيته، حتى في ديانته وشريعته، وتمثيلها في صورة مروعة مضخمة، إنهم ينظرون إليها عن طريق المجهر، ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرة جبلا، والنقطة بحرا، وقد ظهرت حذاقتهم وذكاؤهم في كثير من الكتابات في تشويه صورة الإسلام، ويثيرون بذلك في قلوب قادة العالم الإسلامي اليوم وزعمائه –ممن تثقفوا في مراكز الغرب الثقافية الكبرى، أو درسوا الإسلام بلغات الغرب– شبهات حول الإسلام والمصادر الإسلامية، ويحدثون في نفوسهم يأسا عن مستقبل الإسلام، ومقتا على حاضره، وسوء ظن بماضيه، حتى يتركز نشاطهم وحماسهم في رفع هتاف تطوير الدين وإصلاح القانون الإسلامي." [2]

ولهذا الأسلوب الأثر البالغ في الخطورة ذلك أن عواقبه تمتد من الماضي بسوء الظن به من ناحية، إلى الحاضر بمقت أحواله من ناحية ثانية، إلى المستقبل باليأس من استشرافه من ناحية ثالثة.

1 – كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، تعريب: عبد الحليم النجار، ط:03، دار المعارف، القاهرة، ج:06، ص:171.

2 – أبو الحسن الحسني الندوي: الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين: ص:16/15.

وهنا قمة الحزن والأسى، والغم، والهمّ، الذي قد تصيب المسلمين عندما يشعرون بخسران الماضي والحاضر والمستقبل.

5.الاستراتيجية الإسلامية في الرد على المستشرقين:

ما أخطر أن ترزح تحته الطبقة المثقفة من تأثير أفكار الغرب وعلمائه، ثم تتبنى حملة التجديد والتغريب، وما أشد الخطر أن تصل هذه الطبقة إلى الحكم والسلطة السياسية، "وما لم تتحرر هذه الطبقة المثقفة –التي ترزح تحت تأثير أفكار الغرب وعلمائه–من سيطرتهم، لا تزال الأقطار الإسلامية تواجه عاصفة الاضطرابات العقلية، والردة الفكرية، ويتبنى حملة التجديد والتغريب أفكارهم وآراءهم، حتى إذا تمت لهم سلطة سياسية، حاولوا تطبيق كل ما ينافي روح الإسلام على المجتمع، وتنفيذه في الحكم، ويشكلون بذلك مجتمعا لا يشبه المجتمع الإسلامي القديم إلا في الجنسية والقومية، ولكنه مجتمع أجنبي يتجه نحو الغرب والمادية في الحقيقة والواقع."[1]

فكيف تتحرر الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي من تأثير أفكار المستشرقين المسمومة؟

لقد صرّح المستشرق المنصف آربري (Arthur john Arberry) (1969م-1905م)، عن حقيقة ما يقوم به المستشرقون، وواجب المستشرق المنصف من تقديم الشرق إلى الغرب لتفهيم الأوربيين حقيقة الاسلام؛ حضارته وآدابه، وعقيدته، بقوله: "قبل أن يتيسر إقرار الحق عن الشرق وشعوبه في الضمير المشترك للغرب، ينبغي إزالة حشد هائل من الباطل وسوء الفهم والأكاذيب المتعمدة، وإنه لجزء من واجب المستشرق ذي الضمير الحي، القيام بهذه الازالة، لكن لا تدعه يحسب أن هذه المهمة سهلة، أو أنه خصوصا سيلقى عنها الجزاء." [2]

1 – أبو الحسن الندوي: المصدر السابق: ص:22.

2 – عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين: ص:07/05.

فمواجهة منهج يقوم على تصيد الأخطاء والمساوئ، وينظر بمنظار يختلف عن منظار المسلمين، فيه من الصعوبة والمشقة ليس في كشف الشبهة فحسب، بل وفي اقناع الطرف الآخر بما سبق عنده أنه حقيقة لا مجال للجدل فيها، وعلى هذا فلا بد من دحض أقوالهم وشبههم بالحجة والبرهان العلمي، إذ أنه "ليس من شيمة الباحث الحر النزيه، الواثق بنفسه وثقافته وحضارته الرد بأسلوب التهجم والسخرية والتنديد، لأن ذلك هو سلاح الضعفاء لا سلاح الأقوياء، كما أن المناهج العلمية الصارمة لا تسمح إلا بالمناظرات العلمية المؤدبة الهادئة الخالية من اللغو والهوى، وقد سبقنا أجدادنا إلى ذلك عندما أطلقوا على هذا النوع من العلم أدب الجدل والمناظرة." [1]

إن الاستراتيجية الإسلامية في الرد على المستشرقين، وتحرير الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي من تأثير أفكار المستشرقين المسمومة تقوم على منهج علمي دقيق يجمع بين العمل الإيجابي والعمل العلمي واللذان يقتضيان ما يلي: [2]

1. تأليف كتب تحليلية وأبحاث عميقة حول مختلف المواضيع الإسلامية.
2. الإحالة إلى المصادر بضبط وإتقان.
3. وضع الفهارس المفصلة المتنوعة.
4. الإفادة من مواد وكتب ومظان لم تستخدم بعد.
5. تحري الدقة والوجازة والبعد عن التنميق والاستطراد.
6. العمل العلمي في أسلوب علمي نزيه، بعيدا عن التهكم والتنكيت والتجني والافتراض: حتى لا يفقد النقد قيمته العلمية ووقعه النفسي.

الخاتمة:

وفي الأخير نخلص إلى أن الدراسات الاستشراقية مهما كانت موضوعية في مضمونها ومحتواها، إذا سلمت من التعصب والهوى، فإنها لا تخلو من هنات وأخطاء

1- ساسي سالم الحاج: نقد الخطاب الاستشراقي، ج:01، ص:10.
2 - ينظر: أبو الحسن الندوي: المصدر السابق: ص:22/21.

لغوية أو علمية أو تاريخية، سببها الجهل باللغة العربية، أو اللغات الشرقية الأخرى، فهؤلاء القوم مهما بلغت بهم معرفة لغاتنا وحضارتنا؛ فإنه يغيب عنهم فهم العديد من المصطلحات والتعابير اللغوية، وهكذا تأتي نتائجهم العلمية خاطئة، بل وتبدو في بعض الأحيان مضحكة، ومن هنا وجب علينا تناول هذه الدراسات بالبحث والتقصي للتنبيه إلى هذه الأخطاء الصادرة عن المستشرقين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.